شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلّامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

الدَرْسِ (١٠)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:٢] ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:٣] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، وأشهد أن لا إله إلا الله، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله خير من دعىٰ إلىٰ توحيد رب العالمين صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلىٰ يوم الدين، ورضي الله عن آله وأصحابه الموحدين الطيبين-.

أما بعد؛

فيا معاشر الفضلاء؛ درسنا بعد فجر السبت في مسجد رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علم التوحيد، وعلم التوحيد من العلوم التي يجب تقريرها وتكريرها، فمن العلوم علوم إذا فرغ منها الإنسان وجب عليه أن يعود إليها، وأن لا ينقطع عنها حتىٰ تخرج الروح من الجسد، فإن التوحيد أعظم ما فرض، وإن الشرط أكبر ما يحرص عليه الشيطان، ولا يزال الموفق يخاف علىٰ نفسه الشرك ما بقي حيًا، ويخاف علىٰ الناس الشرك ما بقي الناس في هذه الدنيا، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما انقطع عن تعليم الناس التوحيد قط، فمنذ أول لحظة بعث فيها دعا الناس إلىٰ التوحيد، وما زال يدعو الناس إلىٰ التوحيد حتىٰ في المدينة عندما كثر الموحدون، وعظم الأنصار، لا زال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم التوحيد، ويحذر من الشرك إلىٰ أن مات صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونحن نشرح كتاب [تجريد التوحيد المفيد] لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي المتوفىٰ سنة ثمانمائة وخمس وأربعين من هجرة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أفرد الإمام المقريزي -رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا- هذا الكتاب في توحيد الألوهية، وهو حق الله عزَّ وَجلَّ علىٰ عبيده، شهد الله به، وأشهده خلقه بآياته الكونية والنقلية، وأشهد عليه الملائكة، فشهدت به الملائكة، وأشهد عليه أهل العلم، فشهد به العلماء الصادقون.

وهذا التوحيد من قام به فقد أتى بأعظم العدل، وهو المحمود المنصــور، ومن جعل مع الله إلهًا آخر في عبادته، أو في بعض عبادته، فقد ارتكب أعظم الظلم، وهو المخذول المذموم -نعوذ بالله من سوء الحال-.

وقد قرأنا بعض هذا الكتاب، وشرحناه، ونكمل -إن شاء الله عزَّ وجلَّ- شرحه، مبتغين بذلك إرضاء ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتثبيت أهل التوحيد على التوحيد، ودعوة من انحرف عن التوحيد إلى التوحيد، وإقامة الحجة على المعاندين المصرين على الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيتفضل الابن نور الدين -وفقه الله والسامعين- يقرأ لنا من حيث وقفنا.

(المتن)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله، وصحبه أجمعين، أما بعد: فاللهم اغفر لنا ولشيخنا والسامعين.

قال العلامة أحمد بن علي المقريزي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه: [تجريد التوحيد المفيد]: وَالْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا تُبْطِلُ هَذَا الْمَذْهَبَ وَتَرُدُّهُ، وَتُقَبِّحُ أَهْلَهُ، وَتَنُصُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللهِ- تَعَالَىٰ-.

(الشرح)

كل كتب الله التي أنزلها على رســله فيها التوحيد مقررًا، والشرــك منكرًا، وفيها أن أولياء الله المكرمين يوم القيامة، المنتفعين بما جعله الله يوم القيامة نافعًا بإذنه، هم أهل التوحيد، وأن الذين يشركون بالله غيره، الذين يتقربون إلى غير الله بالعبادة كالدعاء، والنذر، وغيرهما، ظانين بذلك أنهم يقدمون ما يقربهم عند الله زلفى، حيث يظنون أن هذا المخلوق الذي يتقربون إليه بحق الله، يقربهم إلى الله عزَّ وَجلَّ زلفى بزعمهم وظنهم الباطل، أنهم بهذا يصــيرون أعداء الله عزَّ وَجلَّ، وأنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار، وأن فعلهم هذا يبعدهم عن الله بعدًا شديدًا، ويصيرهم أعداءً لله، ويخرجهم من رحمة الله يوم القيامة، ويوقعهم في لعنة الله الدائمة، وعذابه الذي لا يخفّ ولا ينقطع، كل هذا مقرر، محرر، مدلل، في جميع الكتب التي أنزلها الله عزَّ وَجلَّ على رسله.

وفيها: أن الذي يقرب إلى الله زلفى هو توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم التقرب إليه بالأعمال الصالحة، فما قبل عمل صالح إلا بالتوحيد، ولم ير طريق الجنة يوم القيامة إلا الموحدون، ولا يغفر يوم القيامة إلا للموحدين، ولن يشفع الشافعون يوم القيامة إلا للموحدين بإذن ربهم.

كل هذا تطابقت عليه كتب الله، بلا شك ولا ريب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَجَمِيعُ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ- مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ.

(الشرح)

كما أن كتب الله متطابقة على تقرير التوحيد، وعلى التحذير من الشرك والنهي عنه، فإن رسل الله أجمعين متفقون على الأمر بعبادة الله وحده، وعلى النهي عن الشرك بالله عزَّ وَجلَّ، وعلى منابزة ومحاربة المشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر، بصرف العبادة لغير الله مع عبادة الله، أو صرف بعض العبادة إلى غير الله مع عبادة الله، كل الرسل يأمرون بالتوحيد، ويأمرون باجتناب الطاغوت، ويأمرون بالكفر بالطاغوت، ويبطلون الحجة الشيطانية الشركية ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣].

فكل الرسل -عليهم السلام- قد ردوا هذه الحجة، وأبطلوها بالأدلة اليقينية، وأكمل ذلك في الكتب، ما كان في القرآن، وأكمل ذلك من الرسل ما كان من سيد ولد عدنان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأدلة من القرآن، ومن السنة علىٰ فرضية التوحيد كله، وعلىٰ النهي عن الشرك كله، كثيرة جدًا، ومتنوعة الأساليب، مما يدفع عدم العلم، ويدفع سوء الفهم، وإنما يؤتىٰ الإنسان من عدم علمه، أو من سوء فهمه، أو من سوء قصده، والأدلة الكثيرة المتنوعة في كتاب الله، وعلىٰ لسان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدفع عدم العلم، فالأصل العلم بالتوحيد، إلا أن يحول قطاع الطرق بين بعض العامة وهذا العلم.

وهذه الأدلة بتنوع أساليبها تدفع سوء الفهم، فلا يبقى إلا سوء القصد، والكبر، والعناد، وتقليد أهل البلد كما يقول بعض الناس: هذه ثقافتنا، بئست الثقافة الشرك، فوالله ما كان الشرك ثقافة لبلد

من بلدان المسلمين، وإنما طرأ على بعض بلدان المسلمين، والواجب على المسلمين في كل بلد أن يتعاونوا على نبذه، وعلى دفعه، وعلى اجتنابه.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَمَا أَهْلَكَ اللهُ- تَعَالَىٰ- "مَنْ أَهْلَكَ" مِنْ الْأُمَمِ إِلَّا بِسَبَبِ هَذَا الشِّرْك، وَمِنْ أَجْلِهِ.

(الشرح)

كل الأمم التي أهلكها الله عزَّ وَجلَّ، وأخذها أخذ عزيز مقتدر، إنما كان ذلك بسبب الشرك الأكبر، بسبب صرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَأَصْلُهُ: الشِّرْكُ فِي مَحَبَّةِ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ مَعَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَهُ كَمَا يُحِبُّهُ فَقَدْ اتَّخَذَ نِدًّا مِنْ دُونِهِ. وَهَذَا عَلَىٰ أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَةِ: أَنَّهُمْ يَحِبُّونَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ اللهَ.

(الشرح)

هذا الشرك القبيح فعلًا، والقبيح مآلًا، أصله الشرك في الحبة، إذ العبادة أصلها المحبة، وهي مقصود التوحيد، كمحبة العبودية المستلزمة للذل، والخضوع، والتعظيم، وكمال الطاعة، لا تكون إلا لله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن أشرك فيها فأحب غير الله كما يحب الله، فقد وقع في الشرك الأكبر، ويقوده ذلك إلى الشرك في غيرها.

أصل الشرك يعود إلى أمرين:

إلى المحبة والتعظيم، فمن عظم غير الله على غير ما شرعه الله قاده ذلك إلى عبادته، والشرك بالله.

ومن أحب غير الله كما يحب الله، وقع في الشرك الأكبر، ويقوده ذلك إلى الشرك في غير المحبة، وقد **قال الله عزَّ وَجلَّ:** (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ)، أي: يسوون بين الله وبين مخلوقاته في المحبة، على أصح القولين في هذه الآية، وقد تقدم تقرير هذا فيما مضى.

(المتن)

-قال -رحمه الله-: وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١].

(الشرح)

شرك الكفار الذي أنكره الرسل -عليهم السلام-، وبينوا أن من عليه كفار، معادون لله عزَّ وَجلَّ، وملائكته، ورسله -عليهم السلام-، وأن رسل الله، وأولياء الله يعادونهم، وينابزونهم، هو التسوية في العبادة، فما جحد أولئك الكفار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غالبًا، ولا قدموا غيره عليه، ولا أنروا ربوبيته غالبًا، وإنما سووا بينه وبين بعض خلقه في العبادة، فعظموا بعض المخلوقين، وأحبوهم حتى سووهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فصاروا يتقربون إليهم بالعبادة كما يتقربون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم في كل ذلك معتقدون أن هؤلاء المخلوقين الذين يتقربون إليهم بالعبادة إنما يقربونهم إلى الله زلفى، قال ربنا -سبحانه-: (**﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]**).

وأول الآية خبر يراد به الأمر، أسلوبه أسلوب الخبر، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور.

والمقصود منه: الأمر، أي: أخلصوا الحمد والشكر لله الذي خلق السموات والأرض، وأنعم عليكم بظلمة الليل، ونور النهار، ولا تشركوا في هذا الحمد الذي هو بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع الله أحدًا، فكما أنه لا شريك له في خلق السموات والأرض، وفي النعم التي أنعم بها على عباده، فإنه لا شريك له في شكر هذه النعم، وشكر هذه النعم إنما هو بالتوحيد، فلا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العبادة.

وفي آخر الآية: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)، قال الطبري -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [يقول -تعالىٰ ذكره- معجبًا خلقه المؤمنين من كفرة عباده، ومحتجًا علىٰ الكافرين].

إذًا الآية فيها تعجيب للموحدين من الكافرين، وإقامة للحجة على الكافرين.

قال: ومحتجًا على الكافرين: إن الإله الذي يجب عليكم -أيها الناس- حمده، هو الذي خلق السماوات والأرض، الذي جعل منهما معايشكم وأقواتكم، وأقوات أنعامكم، وجعل نعمة الظلمة في وقتها، ونعمة النور في وقته، والذين يجحدون نعمة الله عليهم، بربهم الذي أنعم عليهم بهذا يعدلون، أي: يجعلون له شريكًا في عبادتهم إياه، فيعبدون معه الآلهة، والأنداد، والأصنام، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره.

ثم **قال -رحمه الله-:** يقال عن مساواة الشيء بالشيء عدلت هذا بهذا، إذا ساويته به.

إذًا معنى يعدلون: يسوون بين الله وخلقه في العبادة -نعوذ بالله من الشرك-.

وقال الإمام السعدي -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [**أي يعدلون به سواه، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم**]، أي: **أولئك المخلوقين المعظمين [لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون]. انتهىٰ كلامه -رحمه الله-.**

فأمر هؤلاء كما أقرهم على أنفسهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾[الشعراء:٩٦] ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الشعراء:٩٧] ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٨].

فكان شأنهم التسوية، وبهذه التسوية صاروا مشركين بالله الشرك الأكبر، أعداء لله، ولملائكة الله، ولرسل الله -عليهم السلام-، وللأولياء الصالحين حقًا وصدقًا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَالْمَعْنَىٰ عَلَىٰ أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ: أَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ، فَيُسَوُّونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْحُبِّ وَالْعِبَادَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ لِأَصْنَامِهِمْ: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الشعراء:٩٧]] ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٨].

(الشرح)

إذًا الكفار بربهم يعدلون، بخبر ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسوون غير الله بالله بإقرارهم على أنفسهم، **فيا ترى: هذه التسوية في ماذا، هل هي في الربوبية؟**

تقدم معنا أن أغلب الكفار يقرون بانفراد الله بالربوبية، وبتوحيد الربوبية، فلم تكن هذه التسوية في الربوبية، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة، فكانوا بذلك مشركين، فالعبادة حق الله، فحق على من قال أشهد أن لا إله إلا الله أن يصدق ذلك، بأن يجعل العبادة كلها لله، فإذا صرف العبادة لغير الله أو بعضها لغير الله، فقد أكذب نفسه في قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أو نقض شهادة أن لا إله إلا الله.

ولذلك قال المصنف.

(المتن)

قال: وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ هَذِهِ التَّسْوِيَةَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ فِي كَوْنِهِ رَبَّهُمْ وَخَالِقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ- تَعَالَىٰ- وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَأَنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.

(الشرح)

وقد تقدم تقرير هذا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ- تَعَالَىٰ- فِي الْمَحَبَّةِ وَالْعِبَادَةِ.

(الشرح)

هذه التسوية كانت بين أولئك المخلوقين المعظمين عند عبادهم وبين الله عزَّ وَجلَّ في المحبة، والعبادة، والتعظيم، والخوف والرجاء.

(المتن)

قال: فَمَنْ أَحَبَّ غَيْرَ اللهِ- تَعَالَىٰ- وَخَافَهُ وَرَجَاهُ، وَذَلَّ لَهُ كَمَا يُحِبُّ اللهَ- تَعَالَىٰ- وَيَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ؛ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ.

(الشرح)

لأن هذا هو الذي ورد في الكتب، وعلى لسان الرسل، هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، هذا شرك التسوية، وشرك المشركين كان بالتسوية.

(المتن)

قال: **فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ غَيْرُ اللهِ آثِرَ عِنْدَهُ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ، وَأَخْوَفَ عِنْدَهُ، وَهُوَ فِي مَرْضَاتِهِ أَشَدُّ سَعْيًا مِنْهُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ؟. فَإِذَا كَانَ الْمُسَوِّي بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ مُشْرِكًا، فَمَا الظَّنُّ بِهَذَا؟.**

(الشرح)

إذا كان المسوي بين الله وبين غيره في العبودية مشركًا شركًا أكبر، عاداه رسل الله، ونابزه رسل الله، وقاتله رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كونه في حالة الاضطرار لا يلجأ إلا لله، قال -تعالى-: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[النحل:٥٣]، أي: إذا مسكم الضر في أنفسكم أو في أهليكم، وخفتم الهلاك فإليه -سبحانه- وحده، والخطاب للمشركين تضجون بالدعاء، وتصيحون بالدعاء والتضرع؛ ليكشف ذلك عنكم. وقال -تعالى-: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، سبحان الله يا عباد الله! أقوام يقرون لله بالربوبية، وإذا وقعوا في الضر إنما يلجؤون إلى الله، وينسون ما يشركون، ولكنهم يعبدون غير الله في حال الرخاء ولا يتوبون من ذلك، كانوا مشركين شركًا أكبر، عاداهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقاتلهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف بأقوام يشركون في الربوبية، ويجعلون لمن يعظمونهم، ويسمونهم الأولياء، يجعلون لهم من الربوبية ما يجعلون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعتقدون أن الولي يمكن أن يخلق، ويرزق يقينًا عندهم، ويعطي ويمنع، ويدبر؛ بل يعتقدون أن هناك أقطابًا أربعة، ما من حركة في الكون ولا سكون في الكون إلا بأمرهم، وتدبيرهم.

ومنهم من يقول: إن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدر على كل ما يقدر عليه الله. ثم يشركون في الألوهية، فيعبدون غير الله، ورجاؤهم في معبوداتهم أعظم عندهم من رجاءهم في الله، وخوفهم من معبوداتهم، خوفهم من المقبور في قبره أعظم في نفوسهم من خوفهم من الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا أصابهم الضر ـ صاحوا بمعبوداتهم، وأوليائهم، ينادون صاحب القبر، ويقررون ويكررون الشرك بقولهم: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور، ما فعل هذا حتى المشركين في زمن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا نزلت بأحدهم نازلة لا يلتفت بقلبه إلى الله، وإنما يلتفت بقلبه إلى سيدي فلان، وسيدي فلان، يقولون: اذهب إلى سيدي المرسي أبى العباس، وضع أمرك عنده، اذهب إلى ستنا زينب وضع أمرك عندها، اذهب إلى قبر الشافعي وضع أمرك عنده، زادوا على المشركين أضعاف أضعاف، فهم مشركون في الربوبية، ومشركون في الألوهية قدرًا زائدًا عما كان يصنعه أولئك المشركون، دلت الأدلة على أن شرك المشركين الأوائل بالتسوية، وهؤلاء يجعلون المعبودات من المقبورين وغيرهم فوق الله عَزَّ وَجَلَّ في نفوسهم، ثم يشركون في توحيد الأسماء والصفات. فهم يثبتون بعض الصفات ويعطلون بعض الصفات:

وبعض الصفات التي يثبتونها كالسمع يشركون فيها شرك التشريك، فيجعلون لأوليائهم حتى في قبورهم ما لله في السمع، فهم يعتقدون أن هذا المقبور يسمع الأصوات كلها، فيسمع القريب، ويسمع البعيد؛ ولذلك لو أن أحدهم كان في المشرق، فنزلت به نازلة، وكان معظمه الذي يتقرب إليه في المغرب ينادي: يا سيدي فلان؛ لأنهم يعتقدون أنهم يسمعون الأصوات كلها؛ بل لا يختلط عليهم صوت بصوت؛ ولذلك يعتقدون أنهم يجيبون دعاء كل من يدعوهم، كل من لاذ بهم يميزون صوت فلان وصوت فلان، وصوت فلان، وحاجة فلان، وحاجة فلان، وحاجة فلان، أليس هذا كذلك؟!

بلى والله؛ لأنهم يأمرون بدعاء هؤلاء المقبورين المعظمين من أي مكان، فيشركون في الصفات التي يثبتونها شرك التشريك.

وأما الصفات التي يعطلونها: فهم مشركون فيها شرك التعطيل، فسبحان الله كيف لعب الشيطان بأناس عرفوا الإسلام، فأوقعهم في شرك أغلظ مرارًا من شرك المشركين الأوائل، لا وحدوا في الربوبية، ولا وحدوا في الألوهية، ولا وحدوا في الأسماء والصفات، وكان شركهم في الألوهية أغلظ، وأقبح من شرك أولئك، فإذا كان المسوي بين الله وغيره في العبودية في كلها أو بعضها مشركًا

شركًا أكبر، معاديًا لله، ولرسل الله -عليهم السلام- فكيف بمن وصفنا حاله؟!

وزاد على ذلك: الذي يجعل غير الله أعظم من الله، ويشرك بالله في حال الضراء، وحال السراء، وشركه في حال الضراء أعظم من شركه في حال السراء، ويشرك بالله في ربوبيته، ويشرك بالله في أسماءه وصفاته.

لا شك أن هذا أغلظ، وأن هذا أقبح.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فَعِيَاذًا بِاَللهِ مِنْ أَنْ يَنْسَلِخَ الْقَلْبُ مِنْ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ كَانْسِلَاخِ الْحَيَّةِ مِنْ قِشْرِهَا، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مُوَحِّدٌ.

(الشرح)

هذا حال بعض من ينتسبون إلى الإسلام، وهم مشركون شركًا أكبر، أغلظ من شرك أبي جهل وأبي لهب -نعوذ بالله من سوء الحال-، شركهم أعظم من شرك المشركين الذين خاطبهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقاتلهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم مع هذا الشرك الغليظ يظنون أنهم من الموحدين، ويأتيهم من المعممين من يقرهم على ذلك، ويقول لهم: إن تلك الآيات إنما هي في المشركين أصلًا الذين لم يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأما أنتم فقد شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فافعلوا ما شئتم من الشرك، فما أنتم إلا موحدين، وإنما يحمل تلك الآيات على أمثالكم الوهابية بزعمهم.

هكذا يخادعون الناس، وقد هدمنا هذه الشبهة هدمًا بينًا، واضحًا في شرحنا لكتاب [كشف الشبهات]، وبيَّنا إجماع العلماء من كل مذهب على أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تمنع من كفر صاحبها إذا أتى بمكفِّر، فقد أطبقت كتب المذاهب الأربعة على ذكر ما يرتد به الإنسان، وينقلب من كونه مسلمًا إلى كونه كافرًا، وأجمع العلماء على ذلك، وبينا ذلك -بحمد الله- ببيان تفصيلي واضح يكشف هذه الشبهة.

هذه الشبهة يوردها المعممون المنتفعون من شرك الناس، فهم يعيشون سادة بسبب هذا الشرك، إذا جاء أحدهم إلى أولئك المغرورين يعبدونه عبادة، يقبلون رأسه ويده ورجليه، ويحملونه فوق

أعناقهم، ما يتركونه يسير على الأرض، ويغدقون عليه الأموال؛ يوقفون الأوقاف على أولئك المشايخ الداعين إلى الكفر والضلال، فيستعمل أولئك المشايخ المعممين الضالين تلك الشبهة مخدرات لأولئك العوام، ولكنها والله أوهى من بيت العنكبوت، وردها في كتاب الله واضح، وفي سنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيِّن، وفي لسان الأئمة المتقدمين ظاهر جدًا.

والواجب على طلاب العلم:

أن يظهروا ذلك، أن يكشفوا الشبهات بأن يشرحوا كتاب [كشف الشبهات] وليس لازمًا أن يسموه، وإنما يأتون بشبهة يقررونها، ويكسرونها، ويستعينون بشروحات العلماء. ومن يسير خلف العلماء مثلي يسمعون ويقرأون ويحضرون جيدًا، ثم يطرحون هذه الشبهة وكسرها، سواء في المساجد إن تيسر لهم أو في المجالس العامة التي يجتمع فيها الناس أو في وسائل التواصل الاجتماعي، ونحو ذلك، وهذا من أعظم ما ينبغي أن يعتني به طالب العلم.

(المتن)

قال: فَهَذَا أَحَدُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ.

(الشرح)

تقدم معنا: أن الشرك الذي وقعت فيه الأمم كلها هو: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية. وهذا الشرك الذي تقرر وهو الشرك في الألوهية أحد النوعين.

(المتن)

-قال -رحمه الله-: وَالْأَدِلَّةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَحْدَهُ هُوَ الْمَأْلُوهُ يُبْطِلُ هَذَا الشِّرْكَ، وَتَدْحِضُ حُجَجَ أَهْلِهِ، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

(الشرح)

بعد أن بيَّن الشيخ -رحمه الله- أن كل كتب الله متطابقة، وكل رسل الله -عليهم السلام- متفقون على الأمر بالتوحيد، وعلى النهي عن الشرك، وعلى بيان أن تسوية غير الله بالله شرك أكبر يكون فاعله عدوًا لله ولملائكته ولرسله، ويستحق به الخلود في جهنم والحرمان من مغفرة الله، بيَّن هنا أن الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، وأنه لا يستحق من العبادة شيئًا مخلوق مهما عظُم

فضله، وعلى أن صرف شيء من العبادة لغير الله شرك أكبر كثيرة جدًا، لا يحيط بها إلا الله، وبعضها؛ بل قليل منها يكفي في بيان الحق، ودحض الباطل، وكسر شبه أهل الشرك.

(المتن)

قال: **بَلْ كُلُّ مَا خَلَقَهُ اللهُ- تَعَالَىٰ- فَهُوَ آيَةٌ شَاهِدَةٌ بِتَوْحِيدِهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ، فَخَلْقُهُ وَأَمْرُهُ، وَمَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ وَرَكَّبَهُ فِيهِمْ مِنْ الْعُقُولِ؛ شَاهِدٌ بِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِين تَقَدَّسَ وَتَعَالَىٰ.**

(الشرح)

أي: أن خلق الله كله يشهد بوجود الله، وبربوبية الله، وبكمال علم الله، وبعظيم قدرة الله، وباستحقاق الله للعبادة وحده لا شريك له، وأن أمر الله كله الذي جاءت به الرسل يدل على ذلك، كما يدل على بطلان الشرك كله، فكل آيات الله الكونية وآيات الله النقلية دالة على توحيد الألوهية إما مباشرة، وإما بواسطة توحيد الربوبية، فإنها إذا دلت على توحيد الربوبية استلزم ذلك يقينًا توحيد الألوهية.

فكل ما يراه الإنسان ابتداءً من نفسه كيف رُكِّب هذا الخلق، كيف رُكِّب هذا المجرى ليخرج هذا الكلام، والمخارج واحدة، مخرج الصاد فينا جميعًا واحد، ليس منا من يخرج الصاد من أقصى حلقه، ومنا من يخرج الصاد من وسط حلقه، ومنا من يخرج الصاد من عند رؤوس أسنانه، كلنا مخارج الحروف فينا واحدة، إلى هذه العين كيف تبصر، وكيف جعلها الله داخل محجر يحميها، وجعل لها رموشًا تتحرك وتحميها؛ لأنها أضعف ما يظهر في بدن الإنسان، إلى غير ذلك مما في خِلقة الإنسان.

والله إنا لو نظرنا إلى بعضنا الآن لأدركنا يقينًا أن موجدنا واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، جعلنا على خلقة واحدة، وجعلنا على ألوان متعددة.

وقد درس علماء الاجتماع ذلك، فوجدوا أن الألوان تناسب الأمكنة من حيث صلاحية المعيشة، ولله في خلقه شؤون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إلى ما حوله من المخلوقات، إلى ما في السماء مما يراه، إلى السماء كيف رفعت بغير عمد، لو أراد الإنسان أن يرفع خيمة ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار بلا عمد ما استطاع، وهذه السماء مرفوعة بغير عمد

نراه، لا ترى فيها انبعاجًا، ولا سقوطًا في جهة، ولا فطورًا في جهة، إلى غير ذلك من الآيات الكونية التي يُعلم أنها لا يمكن أن تكون أوجدت نفسها بهذا الانتظام العجيب، ولا يمكن أن يكون موجدها متعددًا؛ إذ لو كان موجدها متعدد لذهب كل إله بما خلق، هذا يخلق إنسانًا رأسه فوق، وهذا يخلق إنسانًا رأسه في بطنه، لكن هذا ما كان، وإنما موجدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أوجد وأنعم وقدر ومَلَك، والله لو لم يكن إلا الموت شاهدًا على تمام ملك الله لكفى به دليلًا. يأتي الابن العزيز للرجل الغني المقتدر، يحتضر أمامه وبين يديه، لا يستطيع أن يدفع عنه الموت، ولو جمع له أمهر أطباء الدنيا، يأتي الأمير فيموت، ويأتي الفقير فيموت إذا حان الأجل؛ لأن الملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما أن أمر الله الذي جاء في الكتب، وجاءت به رسل الله كله فيه الأمر بعبادة الله، وفيه الدلالة على توحيد الألوهية، كما أن الفِطر السوية تؤمن بوجود الله، وتؤمن بقدر الله، وترجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أن العقول السليمة شاهدة بوجود الله، وبربوبية الله، وبألوهية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالأدلة على هذا التوحيد أكثر من أن تحصر.

(المتن)

وَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدٌ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

(الشرح)

هذه الأبيات الجميلة، الجليلة تُنسب لأبي العتاهية، وهي موجودة في ديوانه، وقد جاء أن الرشيد الخليفة، قال لأبي العتاهية:

إن الناس يقولون: إنك زنديق، فقال: كيف أكون زنديقًا، وأنا القائل، وذكر هذه الأبيات. كما تُنسب لأبي نواس.

وبعض العلماء يقول: بعض هذه الأبيات لأبي العتاهية، وبعضـــها لأبي نواس، ذكر أبو العتاهية بيتين منها، ثم زاد أبو نواس بيتًا.

وبعض العلماء يقول: هذه الأبيات لابن المعتز.

وعلى كل حال فهي أبيات جميلة جليلة.

وَوَاعَجِبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ

كل حركة في الكون، حتىٰ حركة يدك شـاهد، ألا ترىٰ أن الإنسـان فجأة يصـاب بالشـلل، فلا يستطيع أن يحرك يده (وَتَسْكِينَةٍ)، كل سكون في الكون فيه حكمة، وفيه آية (أَبَدًا شَاهِدٌ)، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

وهذا يدركه العقلاء؛ ولذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل، وهو المعروف بمؤمن الجاهلية، **قال:**

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ عَلَىٰ الْمَاءِ أَرْسَىٰ عَلَيْهَا الْجِبَالَا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

إِذَا هِيَ سِيقَتْ إِلَىٰ بَلْدَةٍ أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الرِّيحُ تَصْرِفُ حَالًا فَحَالًا

هكذا العقول السليمة تدرك بهذه الآيات وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم إن المصـــنف -رحمه الله- ســينتقل إلى النوع الثاني الذي وقع من بعض الأمم، وهو: شرك الربوبية، وسنتكلم عن هذا -إن شاء الله عزَّ وجلَّ- في الدرس القادم.

أســأل الله عزَّ وَجلَّ أن يكرمنا بالتوحيد، وأن يثبتنا على التوحيد، وأن يعيذنا من الشــرك كله، وأن يكرمنا بأن يجعلنا دعاة صــادقين إلى التوحيد، مبينين للناس ما ينفعهم ورأســه التوحيد، ومبينين للناس ما يضرهم، ورأسه الشرك.

وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَسَلَّمَ.